مقدمة

١

عاطفة الحب عاطفة إنسانية أصيلة، يغرى الحديث عنها كل فرد، ويجذب كل إنسان. وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة، وسيظل إلى أن تنتهى الخليقة.

وقد أولع العرب بنوع من الحب العفيف، المبنى على التصون والتحرز، وتنزيه المرأة عن المباذل والدنايا. فقد كانوا يقدرون الحب العذرى ويحترمونه، فأخو الفزارية كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال لهم: «دعوني، فمثل هذا الفتى يرغب الكرام». وهناك عاشق أصاب السبع معشوقته فلحق بها، فعظم القوم تضحيته وقالوا: «والله لننحرن عليه تعظيماً له، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة، وتسامع الناس، فاجتمعوا إلينا فنحرت

ثلثاثة ناقة»، وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة، ويعطفون على أصحابها، فمعاوية يقول: «لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما»، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة فجميل يذكر فى نهاية القصة التى رواها عن معشوقة افترسها الأسد ولما علم عاشقها بذلك انتحر ولحق بها - يذكر جميل أن الزوج تأسف وحزن حزنًا شديدًا لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما. وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطًا يربط بينهما، كذلك الرباط الذى يربط بين الزوجين، وكان إذا غضب مع معشوقته يرد عليها هذا الرباط، كما يطلق الرجل امرأته، فالرماح بن مالك القيسى غضب مع معشوقته فقال لها: «الوصل عليك مردود» فقالت له: «ما قضى الله فهو خير». وتنتهى بعض القصص بنوع من الخيال يومئ إلى انتصار الحب على الجاه والثروة، وعلى العادات والتقاليد، فعروة وعفراء حين حال المال بينهما فى الحياة فرفض الأب أن يزوجه منها لفقره، يتعانقان بعد الموت على هيئة شجرتين ملتفتين، كانت المارة تنظر إليهما، ولا يعرفان أى ضرب من النبات. وعتبة وربا، حين حالت العادات بينهما وبين إكمال عرسهما، نبتت على قبرهما شجرة عليها ألوان من الورق يقال لها شجرة العروسين.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب، فمنهم من درس الغزل كالدكتور أحمد الحوفى، ومنهم من درس الحياة العاطفة كالدكتور محمد غنيمى هلال، ومنهم من درس الحب

العذرى كالأستاذ موسى خليل سليمان والأستاذ أحمد عبد الستار الجواري ومنهم من درس حب ابن أبي ربيعة وشعره كالدكتور زكي مبارك... إلخ.

وهناك جانب أريد أن أهتم به وهو «قصص الحب العربية» وهو جانب لا يقل أهمية عن الجوانب السابقة التي اهتم بها الباحثون، وهو في الوقت نفسه يقوم دليلا عمليًا أمام الاتهامات التي اتهم بها العرب، وأنهم جنس أدنى من الجنس الآري، لا يعرفون القصة ولا الخيال المبتكر.

٢

وأعني بتلك القصص هذه الأخبار التي كانت تدور حول فريق من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون، ومنهم من هو مجهول مغمور كان يكون أعرابيًا. وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص كانت معروفة منذ العصر الجاهلي، وكان لها رواتها وقصاصها، ولها مستمعوها وطالبوها.

وهذه النظرة إلى هذه الأخبار، وأنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية وأنها حكايات شاعت بين الناس، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح، وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلى. فإن قيسًا المجنون قال: إنه رأى ليلى فقط ليلة الغيل. ولكن الناس قد تزيدوا

فى ذلك - هذه النظرة تفسر الاضطرابات فى الروايات التى قد تسند خبرًا إلى قيس، ثم نراه مسندًا إلى جميل. أو شعرًا إلى عروة، ثم نراه منسوبًا إلى ابن ذريح.. إلخ. وهذه النظرة تنتشل فريقًا من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيد والاضطرابات كما اختار الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى أمام هذه الأخبار فى كتابه «الحب العذرى».

٣

على أن هناك فريقًا من الباحثين، نظر إلى هذه الأخبار تلك النظرة وذلك فى أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب، أو تنفرد بها رسالة.

فالدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه «الغزل فى العصر الجاهلى» حين تعرض لحياة العذريين وما روى عنهم قال: «ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل، التى تروى عن حياة هؤلاء المحبين، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثًا ومثيرات، لذا نجد اختلافًا فى الروايات وتناقضًا أحيانًا، ونجد تشابهًا بين نهاية حب ونهاية حب آخر» (ص ٢٠٥ من الطبعة الثانية).

والأستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التى شاعت فى العصر الأموى. فذكر أن أخبار حب جميل وبثينة، قد استولت على

خيال الشعب العربي حتى صنع منها قصة غرام. وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتتزايد باطراد حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية. ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح، وقد ساق صاحب الأغاني أخباره في إطار من البواعث الضعيفة في إحكامها الفني، ثم رأى أن ما ساقه الرواة من أخبار ابن ذريح أعلى درجة من أخبار المجنون، ولكن الأستاذ سنجر (Singar) يرى أن قصة ابن ذريح تعكس أهم عناصر القسم الثاني من قصة تريستان المشهورة. ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصة غرامية. ثم ختم الحديث بوضاح اليمن، فذكر أنه بطل من أبطال القصص الغرامية، وأن البواعث التي ذكرتها القصة في نهاية حياته موجودة إلى الآن عند أهل مهرة في قصة ذكرها «يان». (انظر: تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٩٩ - ٢٠٢).

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصة عند العرب، منذ عصر ما قبل الإسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر، تحدث فيما تحدث عن «قصص الحب» (The Love Story) فرأى أنها ترجع إلى عهد الأمويين، وأن مؤلفيها مجهولون، وأنها تخاطب غرائز الجنس والشر، وعواطف الحب والشهامة، لذلك التصقت بذاكرة الشعب، وكما يقول (F C. Bartlet) : «نجحت في إحداث التأثيرات

الدرامية على عقول الشعب، وفى خلق الدهشة والاستغراب» (انظر: "The Modern Arabic Short Story")

والأستاذ موسى خليل سليمان عقد فى كتابه «الأدب القصصى عند العرب» فصلا للقصص الإخبارى، وعنى بها الحكايات القصيرة والأسمار الكثيرة، والنوادر الظريفة، والأخبار المشتتة هنا وهناك، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول لأنها لم تدون فى مكان واحد معين ولم يكتبها كاتب واحد معروف، لغرض من الأغراض الأدبية.. إلخ. ثم رأى أن أهم ما يلفت النظر من هذه الحكايات لونان: الحكايات الحبية والحكايات الغنائية. ولكنه فى هذا الكتاب اكتفى بدراسة الحكايات الغنائية ولم يدرسها دراسة أدبية، بل عرض للغناء، وترجم لأشهر المغنين والمغنيات، ثم ذكر أن لها فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية. ولكنه لم يطنب فى ذكر هذه الفوائد، ولا ننتظر منه أن يطنب فى جزء من كتاب تحدث عن الأدب القصصى بوجه عام الدخيل منه والموضوع. على أنه فى كتابه «يحكى عن العرب» أورد نماذج للقصص العربى، وذكر - فيما ذكر - نماذج للحكايات الحبية، فعرض لقصة مجنون ليلى، وقيس ولبنى، وعروة وعفراء.. إلخ. وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة، وكان فى تحليله لا يتعمق تعمقًا كبيرًا مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية، وقد ذكر المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن يمر الطالب مرورًا عابرًا بهذا التراث القصصى الضخم، ولهذا عرض

تلك النماذج خلعة للطالب العربي.

والأستاذ محمد مفيد الشوباشي خصص جزءًا في كتابه «القصة العربية القديمة» لدراسة قصص الحب العذرى. وعرض - فيما عرض - قصة جميل وبثينة وقصة قيس ولبنى. ورأى أن العرب في ذلك أو بعضهم على الأقل، قد ضارعوا المبرزين من مؤلفي القصص العصرية في ابتداع الأحداث والمشكلات، وإماطة اللثام عن كنهها ومضمونها.

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين في الجزء الأول من كتابه «حديث الأربعاء». فقد رأى أنه اكتشف فنًا أدبيًا ظهر بعد الإسلام وهو فن القصص الغرامي. ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن، وتعرض لطائفة من هذه القصص، وأظهر ما في بعضها من تكلف وسخف، وما في البعض الآخر من جودة وإتقان.

٤

هذه هي أهم البحوث التي دارت حول سدا الموضوع. وهذا الكتاب سار في الدرب نفسه الذي بدأه هؤلاء السادة الأفاضل، فدرس قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذي انتشر بين عامة الشعب، ينبغي أن يدرس، وأن يكشف عما فيه من بذور

فنية. وعن الأغراض التي من أجلها أنشئت بعض هذه القصص وعن الأسباب التي قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس، وكل ما أرجوه أن أقطع قدرًا من الشوط، وأن ألقي شعاعًا من الضوء.